غزوة الفتح أو فتح مكة

وتمت في شهر رمضان المبارك في سنة ثمان للهجرة، وقاد المسلمين فيها القائد الأعظم، «محمد» ﷺ، فبعد الفراغ من غزوة مؤتة التي استشهد أمراؤها الثلاثة «زيد بن حارثة» و«جعفر بن أبي طالب» و«عبد الله بن رواحة» رضي الله عنهم، أقام رسول الله ﷺ في المدينة جمادى الآخرة ورجب، وكان من شروط صلح الحديبية شرط ينص: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

ثم اعتدى بنو الديل - وهم من بني بكر - حلفاء قريش، على رجل من خزاعة لثأر بينهم في الجاهلية، فأعانتهم قريش في ذلك، فانطلق «عمرو بن سالم» الخزاعي مع رجال من قومه، ليرووا لحليفهم - رسول الله ﷺ - ما صنعت قريش، وقال عمرو:

يا رب إني ناشد محمَّدا ... حلف أبينا وأبيه الأَتْلَدَا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالصبح يجري مُزْبِدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رُصَّدا[1]

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال وقد ذرفت عيناه: (نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم). وخشيت قريش عاقبة سوء فعلها فأرسلت «أبا سفيان»

---

(١) الأبيات في سيرة ابن هشام ثمانية وقد اقتصرنا على ما ذكرنا (٤/٤٣).

إلى المدينة ليشد العقد، ويمدد العهد (عهد الحديبية)، وقبل أن يدخل على رسول الله ﷺ المسجد مَرَّ بابنته «أم حبيبة» زوج النبي ﷺ، ولما رغب في الجلوس على فراش رسول الله ﷺ طوت الفراش وقالت له: إنك مشرك نجس، فاغتاظ منها وقال لها: لقد أصابك بعدي شر. ولما أتى رسولَ الله ﷺ، قال: يا محمد! إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العقد، وامدد العهد، وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: (ولذلك قدمت؟ هل من حدث قِبَلكم؟) فقال: معاذ الله! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل، وكتم عن رسول الله ﷺ نصرتهم لبني بكر على خزاعة خلافاً لميثاق الحديبية، فلما فعل ذلك، قال له رسول الله ﷺ: (فنحن على مدتنا وصلحنا)، فانطلق «أبو سفيان» يطوف على الصحابة حتى يكلموا له رسول الله ﷺ فلم يلق عند أي منهم غَناء، حتى إذا يئس من نجاح مهمته، عاد إلى مكة بخفي حفين، وأخبر قريشاً بما كان. ثم أمر رسول الله ﷺ عائشة أن تجهزه خفية، وأخبر بعض الصحابة أنه سائر إلى مكة، كما أفشى في الناس أنه يريد خيبر.

وعلم «حاطب بن أبي بلتعة» ـ وهو من أهل بدر ـ بذلك، فكتب كتاباً إلى قريش يعلمهم فيه بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وسلمه إلى امرأة مشركة لتوصله إلى قريش، فأخبر جبريل عليه السلام بما فعل «حاطب»، فدعا رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» و«الزبير بن العوام» وأخبرهما بما كان، ثُمَّ أمرهما أن يدركاها ويأخذا الكتاب منها قبل أن تسلمه إلى قريش، فلقياها عند الحليفة، ولما طلبا منها كتاب «حاطب» أنكرت علمها بشيء، فقالا لها: لَتُخْرِجنَّ الكتاب، أو لنكشفَنَّك، فلما رأت الجد منهما، حلت قرون رأسها، وأخرجت لهما الكتاب، ودعا رسول الله ﷺ حاطباً، وسأله: (ما حملك على هذا؟)، فقال: يا رسول الله! أما والله! إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيَّرت ولا بَدَّلْت، ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، كان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ، فصانعتهم عليهم، فقال «عمر بن الخطاب»: يا رسول الله! دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد

نافق، فقال رسول الله ﷺ: (وما يدريك؟ يا عمر! لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم مضى رسول الله ﷺ إلى سفره واستخلف على المدينة «أبا رُهْم، كلثوم بن حصين» الغفاري، ولقي «العباس بن عبد المطلب» رسول الله ﷺ ببعض الطريق بالجحفة مهاجراً بعياله، وكان مقيماً بمكة على سقايته برضا رسول الله ﷺ.

ووصل جيش الفتح إلى مر الظهران ـ على بعد أربعة فراسخ من مكة، وكان «أبو سفيان بن حرب» و«حكيم بن حِزَام» و«بُدَيْلُ بن ورقاء» قد خرجوا يتحسسون الأخبار، فقبض عليهم حرس رسول الله ﷺ، وكان «العباس» راكباً بغلة رسول الله ﷺ فلما لقيهم أخذ منهم «أبا سفيان» وأردفه خلفه، ثم قدم به على رسول الله ﷺ فدخلا، ودخل في إثرهما «عمر بن الخطاب» فاستأذن النبي ﷺ في ضرب عنق «أبي سفيان»، لكن رسولَ الله ﷺ أمر «العباس» أن يذهب به إلى رَحْلِهِ ثم يأتيه به إذا أصبح.

وفي الصباح عرض رسول الله ﷺ الإسلام على «أبي سفيان» فأسلم، ثم انطلق به «العباس» إلى مضيق الوادي ليريه كتائب الفتح، وهي تترى أمام عينيه، وأخذت الدهشة من «أبي سفيان» كل مأخذ، وقد بهرته تلك الحشود الحاشدة، وهي تمر أمامه، وكلما سأله «أبو سفيان» عن كتيبة سماها له، حتى مرت كتيبة لم ير لها مثيلاً فيها ألف دارع كلهم في الحديد ولا يرى منهم غير الحدق، فقال أبو سفيان: والله! يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال: يا أبا سفيان! إنها النبوة، فقال: فنعم، إذاً.

وأحاط الجيش الإسلامي مكة من كل جهاتها، إحاطة السوار بالمعصم، وأمر النبي ﷺ ألاَّ يقتل إلا من قاتل، وأمر بقتل عدد من المشركين، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، وهُرِعَ «أبو سفيان» إلى قومه،

حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا «محمد» قد جاءكم فيما لا قَبِلَ لكم به، فمن دخل دار «أبي سفيان» فهو آمن، فقامت إليه امرأته «هند بنت عتبة» فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأحمس - وصفته لسمنه بزقٌ مملوء بالدسم -، قُبِّحَ من طليعة قوم! قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قَبِلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرَّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ودخل رسول الله ﷺ مكة على راحلته مُعْتَمًّا بشقة بُرْد حِبَرَةٍ حمراء[1]، وقد أكب حتى لامس رأسه ظهر راحلته تواضعاً لله تعالى الذي أيده بهذا الفتح العظيم، وهو يقرأ سورة الفتح. فلما اطمأن الناس، نزل عن راحلته، وأتى البيت، فطاف بالكعبة أُسْبوعاً[2]، ثم استعار مفتاح الكعبة من «عثمان بن طلحة» ودخلها فأزال ما فيها من صور وتماثيل، وصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم رد الأمانة - مفتاح الكعبة - إلى أهلها - عثمان بن طلحة، ووقف على باب الكعبة وقال بعد أن أمر بنزع الأصنام التي تحف بها: (يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم! قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وكان يوم فتح مكة أعظم أيامها، لقد جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وأكرم النبيين، وسيد الصديقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع سنته بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) ابن هشام (٥٣/ ٤).
(٢) أسبوعاً: سَبْعاً.